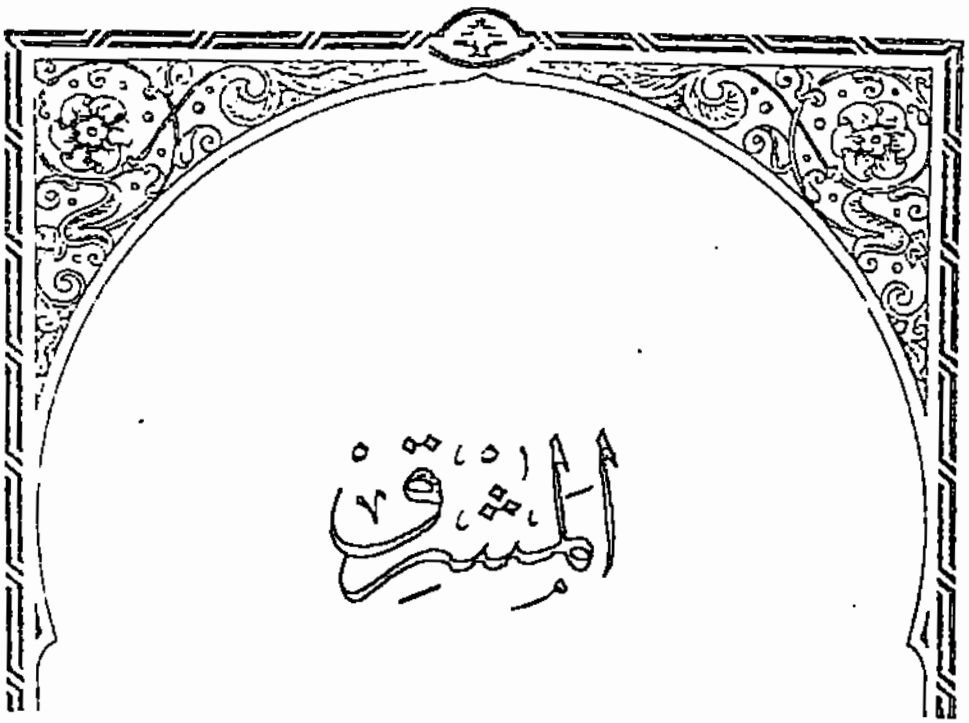

السنة الخمسون
ايار – حزيران ١٩٥٦

تاريخ الدول السرياني

تأليف أبي الفرج الملطيّ (تابع)

بقلم الأب اسحق ارملة السرياني

وفي هذا الزمان تحرّش الاخوان ابنا الشيخ عدي الذي يعتبره اكراد الموصل بثابة نبيّ . وكان احدهما قد اقترن بابنة مغوليّة فتخوّف اخوه ونقل ذويه وهم زهاء اربعمائة نسمة وانهزم الى سوريّة في غنمه وبقره وخيله . وملك الرعب جميع المسيحيّين وخافوا ان ينهبهم بزوره ويقتلهم . لكنه مرّ بهم ولم يؤذهم . وبعد سفره اقبل بعض اللصوص وحاصروا قريـة طكشور ببلد نينوى . وقاومهم القرويون وقتلوا منهم عشرةً وقتل من اهل القريـة خمسة رجال وخطف اللصوص سبع فتيات وثلاث فتيان .

ويوم الخميس ٣ تشرين الاول ١٥٨٧ لليونان (١٢٧٦ م) حدثت زلزلة عنيفة في مدينة اركبطيا وهي ارغيش . فهبطت اسوارهـا القويّة وجميع ابنيتها

وهلك اغلب سكانها . وحدثت زلزلة كذلك في خلاط وصقعها في الساعة التاسعة وأخربت بعضها ولم تكن قوية كزلزلة ارغيش .

وفي تلك الايام خرجت قافلة كبيرة من التجار النصارى من قيليقية الى بلد الروم فوثب اليها ثلاثمائة فارس من التركمان واجهزوا على ثمانين منهم من مشاهير التجار النصارى قرب مدينة هرقلية ونهبوا جميع بضائعهم . وكان مع احدهم وهو من اسرة عيسى بن الحصيري مائة وعشرون الف دينار صوري ولم يفلت من القافلة سوى اربعة جمال عربية .

وفي شتاء هذه السنة احتشد زهاء سبع ميرات من الجيش التتري وساروا الى قلعة البيرة ليحاصروها فامتنعت عليهم بسبب هبوط الثلج المتراكم والبرد الشديد (٥٣٣) وظل الكثيرون منهم دون خيل فعادوا راجلين دون جدوى . وكان على راسهم القائد اباتي نوين الكبير فلما وصل الى آثور ادركه مرض عضال .

وعلى اثر عودة التتر هؤلاء استجمع التركمان قواهم واحتشدوا وتبعهم نحو الف خيال من المصريين وزحفوا الى ناحية مرعش يريدون الوصول الى قيليقية المذبة . فشعر الملك لاون وحشد جنوده الارمن وولى قيادتهم عمه البارون سينباط القنطربل وغيره من الزعماء . فزحفوا نحو مرعش ليحاربوا التركمان يوم الجمعة من الاسبوع الثالث من الصوم الاربعيني فقتل سينباط المذكور في اليوم عينه وقتل معه صاحب كربيزاج وثلاثة عشر من المشاهير وثلاثمائة فارس . وسقط من الاتراك كذلك جمهور غفير وانقلبوا راجعين وتعذر عليهم دخول البلد .

وقبل هذه الحوادث اعني في الاسبوع الاول من الصوم يوم الاربعاء ١٩ شباط ١٥٨٧ لليونان (١٢٧٦ م) هبت عاصفة شديدة في الموصل واربيل واطرافها وانتشر رمل احمر كثير حتى حجب الجو ولم يشاهد الرجل صاحبه منذ الساعة الثالثة حتى التاسعة . فبلغ الناس هلعاً شديداً وظنوا ان الطوفان الهوائي او الزلزال الارضي سيفنيهم كما أفنى اهالي ارغيش . فخرجوا الى البرية وباتوا فيها . ولما خمدت الريح عادوا الى بيوتهم ، وقد هبت كذلك زوبعة عاصفة يوم احد المزقى السابق لاحد مدخل الصوم ولكنها لم تكن شديدة .

وفي تلك الفضون انتوى بيشار قائد حصن زياد اللئيم الخبيث سفاك الدماء ان ينهزم الى مصر وهو شيخ بالغ المائة من سنه . وكان حاقداً على سركيس

الاسقف لارمن في اورجان لانه كان حظوة لدى الملوك الهولاكيين . فافتكر هذا اللئيم ان يفتك به قبل ان يذهب الى مصر . فسار مع بعض اصحابه (٥٣٤) الى تلك المدينة وبلغه ان الاسقف يحتفل في احد ديورته بعيد الشعانين فترصده في الطريق . ولمّا عزل ذاك الاسقف ليعود الى المدينة يوم الاثنين من اسبوع الآلام وكان ابنه الجليل كذلك معه قال له : يا ابني اذهب انت الى المدينة لاني اريد الذهاب لاتنزه في القرية الفلانية وادشن فيها الكنيسة الجديدة . فاذهب اذن ولا تتأخر ولمّا افترقا اقبل ثلاثة فرسان اتراك ولاقوا الاسقف فانحدروا وقبلوا يده وقالوا له : ان قد وصل سفيرٌ يطلبك ويطلب ابنك ليقرأ الفرمان الذي معه . فقال لهم الاسقف : ان ابني قد سار الى القرية الفلانية اما انا فهئذا قادم . وما ساروا الا القليل حتى ادركهم مائتا فارس تركي وانصبوا على الاسقف وعلى ثلاثين من القسان والرهبان والشمامسة وغيرهم ممن معه وفلقوا هامته ومضوا بها وانقلبوا الى القرية واحاقوا بالكنيسة التي كان فيها ابنه ودخلوها ولم يجدوه وكان قد اختفى في كومة قش هناك . ولمّا عزلوا على الرجوع قال احد اولئك الظالمة الخبثاء يجب ان نحرق هذا القش اولاً ثم نرحل فاضرم فيه النار وخرج ذلك المغدور فقال له الاتراك : اين هو ابوك ؟ فقال : قد دخل المدينة . فالقوا امامه هامة والده وما كاد يبصرها حتى جعل يولول ويبكي وهو منحنٍ فوقها فاجهزوا عليه كذلك وقطعوه قطعاً قطعاً . وبعد هذا سار بيشار الخبيث في بقيةٍ وعسكره الى مصر .

اما بروانة مدبر مملكة بلد الروم فخاف ان يظن المغول بانه محالف للمصريين فاخذ ابنة السلطان ركن الدين ومضى بها الى خدمة ملك الملوك وقال له : بلغني ان المصريّ مستعد ليأتي ويخطفها ولهذا (٥٣٥) بادرت فاحضرتها . فشكره التتر على ذلك . ثم قال لهم : ان ابن الخطير احد امرائنا يريد ان ياخذ الفتى غياث الدين صاحب بلد الروم وينهزم الى مصر . فاعطوني جنداً لاذهب سريعاً واقبض عليه . فسار معه توتغرتاي اخو ملك الملوك وشاهدوا ابن الخطير والفتى في بقعة اياستين منهزمين الى سورية . فقتك الامير بابن الخطير وسلم الفتى الى بروانة فأجلسه على عرش ابيه . وهكذا حظي بروانة لدى التتر فاحبوه حباً جمّاً بسبب ما ابدى لهم من الوداد والولاء .

وفي هذا الزمان وانى اعلم الدين يعقوب التاجر النصراني الكبير من زيارة قويلاي خان الكبير . وأصله من برقوطة قرية باربيل . ولمّا كان مسافرًا ادركته المنون بارض خراسان . وكان بصحبته السفير اشموط وكان رجلًا عظيماً مكرّماً لدى الايغوريين سائرًا سيرة الرهبان . فهذا مضى بابنائه الى خدمة اباقا ملك الملوك فاستقبله استقبالًا حسنًا ثم نصّب مسعودًا المذكور والياً على الموصل واربيل وتولى تدبيره اشموط .

وفي السنة ١٥٨٧ لليونان (١٢٧٦ م) انهزم ابن الشيخ عدي الثاني من بلد الموصل الى مصر ومعه امرأته التترية .

وفي السنة ١٥٨٨ لليونان (١٢٧٧ م) نوى البندقدار صاحب مصر الشخوص بذاته الى بلد الروم . وقد اشار اليه في ذلك بيشار الشيخ والامراء الذين انهزموا اليه . وما ان شعر لاون ملك قيليقية حتى بعث فاخبر زعماء التتر ليكونوا على بصيرة من الامر . امّا بروانة فلسبب بغضه لملك الارمن او لعدم استقامته مع التتر صرح لهم بان لاون غير صادق في كلامه . اما ملك الارمن فلم يصطبر بل سار الى قلعة الدباب المجاورة (٥٣٦) للتتر . وجعل يرسل الوفود يوميًا اليهم ويقول لهم : انهضوا من غفلتكم وتحذروا فان المصري قادم في جيش ضخم . كان بروانة كعادته يكذّب الملك ويزيّف قوله مدّعيًا بانه يروم التحبب اليهم لا غير . وهذا ما حملهم على الاغماض عن قوله . وكان بروانة يولم لهم كل يوم وليمة ويسكرهم حتى يوم الجمعة ١٦ نيسان ١٥٨٨ لليونان (١٢٧٧ م) فانصبّ المصريون عليهم وشاهدوهم سكرى مضطربين لا يكاد يقدر الواحد منهم ان يركب حصانه . وبما ان شريعتهم لا تبيح لهم ان ينهزموا دون ان يلاقوا العدو فقد ناوشوا المصريين وانكسروا وقتل في تلك المعركة زعيمان تتريان احدهما طوغو وثانيهما توزان بهادر البطل . وكان مع التتر ثلاثة آلاف من الكرج فوقفوا يحاربون وقتل منهم الفان وتخلّف الف واحد . وقتل من المصريين خلق كثير . ومن المغول خمسة آلاف . اما بروانة فلما رأى انكسار التتر هرب مع السلطان الى قلعة دوقية . وسار البندقدار صاحب مصر وخيّم بجانب قيسارية في موضع يقال له كيقوباد وبقي هناك خمسة عشر يوماً . ودخل قيسارية يوماً وجلس على عرش السلطان ولم يؤذِ احدًا وانما كان

جنوده يشترون ما يلزمهم مشترى حتى الطف لدوابهم . وكان يقول لهم : ما جئت لاخرب البلد لكن لافك صاحبه من عبودية التتر . واما اباقا ملك الملوك فحينما وصلت اليه الاخبار جمع العساكر وقصد التوجه بنفسه الى بلد الروم . ولما عرف البندقدار انه لا يمكنه مقاومته ارتحل عن بلد الروم واخذ معه الحموز ام بروانة (٦٣٧) وابنه الكبير صهر ملك الارمن . وعند خروجه اجهز على نصارى مدينة رومسان اذ قيل له ان التتر يستعينون باهاليها عند قدومهم الى سورية .

ولما وصل ملك الملوك الى بلد الروم لم يشاهد احداً من المصريين واذا شاهد التركمان منهزمين الى سورية فاغار عليهم وفتك بهم وسبى اهلهم . وساق الطمع بعض التتر فقتلوا وسبوا ونهبوا الكثيرين من المسيحيين مع ان الخان سبق فامرهم ان لا يتعدوا عليهم . وكان اولئك النصارى قد اخفوا لديهم كثيرين من التتر المنهزمين من وجه المصريين وقدموا لهم الطعام ، على ان الخان رفع كتاباً الى احد الرهبان وامره ان يطوف المعسكر ويبحث عن الاسرى النصارى ويعتقهم . وظلوا على ذلك حتى جال ملك الملوك جبال قبدوقية وعاد الى اقشا دربند ثانية .

ولما قدم بروانة الى ملك الملوك ظل يتحفى به ويكرمه ثم اخذه معه كأنه يريد ان يشاوره في مسئلة بلد الروم وكم يلزم ذلك من الجند وكم من الفرق ينبغي ان تبقى هناك لمقاومة المصريين اذا زحفوا ثانية . ولما وصل الخان الى جبل الاطاغ بارمينية أولم وليمة لبروانة وسقاه كثيراً من لبن الخيل لانه ما كان يشرب خمراً ولما خرج ليريق مائه اشار اباقا الى حاملي الاسلحة فقطعوه قطعاً قطعاً يوم الاثنين ٢ آب من السنة المذكورة وهي السنة ٦٧٥ للعرب (١٢٧٦ م) وهكذا قتل مثلما قتل هو السلطان ركن الدين . وصح فيه القول : ان القاتل يقتل ولا يحسب دمه . قيل ان التتر لما جرّدوا عليه السيوف لم يجزع ولم يراع بل جعل يشتمهم ويقول : أهذا جزائي منكم وجزاء كل (٥٣٨) من يحبكم ؟

اما البندقدار فقبل وصوله الى دمشق ادركه قضاء الله العليّ قرب حماة وعاجلته المنون واضمحلت افكاره الغامضة المتعوّدة الثورة والخصام . فقد تقطرس

كل التخطرس حتى كاد يقول مع فرعون القديم : ان لي نهر النيل وانا خلقته ! قيل انه في محاربته التتر اصابه سهم في وركه وظلّ النصل اياماً كثيرة ولما اذن للجرّاح ان يخرجه فارق الحياة . وخلفه ابنه في مصر واقام صاحب حماة مدبّراً لسورية باجمعها . وتأكد لنا بعد ذلك ان خازنه خلط سمّاً قتّالاً في حليب الخيل وسقاه . وعندما أحسّ الوجع أمر فسقوا الخازن كذلك وماتا كلاهما معاً.

وقد حدث في تلك الحرب ما يستحقّ الذكر وهو ان التتر لما انكسروا وسقط قتلاهم على الارض أمر البندقدار اخا ابن الخطير الصغير وكان منهزماً معه ان يطوف على القتلى ويجثّ عمن فيهم من المشاهير لكي يتباهى به لدى المصريّين . وما ان مرّ ذلك الرجل بين القتلى وجعل يقلّب وجوههم ليعرفهم حتى شاهد بينهم تتريًّا ساقطاً وفيه رمق ينتظر الليل لينهزم . فلمّا رأى التتريّ ابن الخطير يغلي القتلى غلب على ظنه انه يروم الاجهاز على من لم يمت فاخذ قوسه واخرج سهماً من جعبته وصوّبه نحوه بكلّ دقّة فأصاب جبينه وانغمس النصل في مخّه . وظنّ الذين كانوا معه ان سهماً هبط من السماء عليه فحملوه ومضوا به الى البندقدار فمات لساعته .

ويوم الخميس ١٧ حزيران (٥٣٩) من تلك السنة كمنّ الاكراد الملاعين في جبل الغاف وقبضوا على عشرة رهبان من دير مار متى ونكلوا بهم . وفتكوا باحدهم المدعوّ ماصوتا وباعوا التسعة باربعة آلاف درهم .

وفي السنة ٥٨٩ لليونان (١٢٧٨ م) ارسل الملك لاون فاستدعى ابنته كنّة برواتة اليه لان زوجها نُقل الى مصر كما ذكرنا .

وفي هذه السنة حدث شتاء قاسٍ وبرد شديد في اذربيجان وفي ارمينية الكبرى حتى حدود سوتيه وهلك خيل اصحاب الخيام وبقرهم وقطيعهم . وقلّ الزاد حتى بيع مائة منّ من الحنطة اعني حملاً صغيراً من حمل الحمار باربعين ديناراً ركنيًّا في موجان .

وفي هذا الشتاء تشبّث القافا الفارسي الذي عزل المسعود بن قوطي من ولاية الموصل فاستدعى شهود زور شهدوا على اشموط وعلى مسعود ودفع رشوة الى القضاة فحكموا له وقضوا على اولئك النصارى وعزلوهم وملكوا القافا .

وفي صيف هذه السنة احتشد التركمان والبدو والاكراد الذين في سورية

وزحفوا الى قيليقية ووصلوا الى تل حمدون وعاثوا في تلك الاطراف ونهبوا غنائم وافرة وانقلبوا عائدين .

وفي السنة ١٥٩٠ لليونان (١٢٧٩ م) سمحت الملكة قوتاي خاتون الكبيرة ان يحتفل المسيحيون بعيد الدنح (الظهور) ويخرجوا الى النهر ويتبركوا بالماء . وكانت تلك العادة قد ألغيت بسبب فتنة اثارها العرب . فاقبلت الملكة الى مراعاة على رغم البرد القارس وأمرت المسيحيين ان يخرجوا كعادتهم في صلبان معلقة برؤوس الارماح . ولما خرجوا اقتدتهم النعمة الالهية فاخمدت شدة البرد واخضر العشب (٥٤٠) وانقلب الشتاء ربيعاً مما ابهج المغول جداً برعي مواشيهم والنصارى بانتصار ايمانهم .

وفي هذا الشتاء زحف الى بلد شيراز زهاء خمسة آلاف من التتر الخوارج كانوا منهزمين ومختفين في اطراف الهند وقد اتلفوا ذلك البلد وفتكوا بالكثيرين من اهاليه ولكنهم لم يقدروا ان يدخلوا المدينة بل بطشوا بمن خرج لمبارزتهم ولم يفلت منهم الا القليلون . ثم ان قطّاع الطرق في شيراز تصدّوا لاصحاب الاموال وسلبوهم بضائعهم . ولما بلغ ذلك ملك الملوك زحف اليهم وادركهم واهلك اغلبهم بحدّ السيف .

وكان في بغداد جنديّ شرّير وقح ناهض بخدمة الحاكم اعتاد ان يفتري على الكثيرين ويقتض نساءهم . وكان يستهزئ باقطاب الحكومة على سبيل المزاح وفيما كان الحاكم ذات يوم خارجاً يتصيّد قبض احد الاقطاب على ذلك الجنديّ العاتي ونصب له مشنقة على عجلة وستر يديه ورجليه فطافوا به هكذا في شوارع بغداد وثقبوا لسانه بمسلّتين ثم قام احد الشبان وراء العجلة وجعل يكشّ الذباب عن وجهه ويشتمه قائلاً : هذا عقاب من يستهزئ بالاعيان والوجهاء . ثم مضوا به الى نهر دجلة وحزّوا هامته وعلّقوها فوق الجسر واحرقوا جثته بالنار . وقد اتعظ الكثيرون من الاشرار بهلاكه . وكانوا قد طافوا به ليلاً في الشوارع والمشعوذون ماشين امامه يضربون بالدفوف ويرقصون ساخرين به .

ويوم الجمعة ١٩ ايار من هذه السنة انقضّ الجيش المصريّ على قلعة الروم في تسعة آلاف راكب واربعة آلاف راجل وعلى رأسهم الامير باساري وعلى

رأس الجيش السوريّ حسام الدين البيتابيّ وحلوا عند نهر (٥٤١) فرزمان وأرسلوا سفيرين احدهما عربيّ وثانيهما ارمنيّ وقالا للجاثليق : ان السلطان يأمرك ان تسلّم القلعة بالامان وتذهب برهبانك الى اورشليم وتستقرّ فيها فيعطيك هناك قرى كافية لحاجتك . والا فاذا أبيت ذلك واحببت الذهاب الى قيليقية فهو مستعدّ ان يبعثكم مكرّمين مع بغال وخيل . واذا تمنّعت ورفضت ذلك فدماء المسيحيين اجمع يطلبها الله سبحانه منك .

أما الجاثليق فقال لهما : اني اكافح حتى الموت ولن اخون الله تعالى والملك. وعند ذاك طاف المصريّون ليلتهم كلها في الحدائق وقطعوا الاشجار وهيأوا السلالم وصوّبوا القتال صباح السبت نحو المدينة وهزموا الارمن المحاربين في السور الجديد الذي ابتنوه . ثم وضعوا السلالم ودخلوا المدينة المذكورة وانتهبوها واحرقوا جميع دورها ولم يجدوا فيها احدًا لان اهاليها قاطبةً كانوا هاربين . وظلوا خمسة ايام ينهبون ويعيثون ويحرقون ثم ارتحلوا عن المدينة واكلوا غلّاتها واكتسحوا كرومها واشجارها وحطموا حجار أرحيتها واقتلعوا قدور حمّاماتها ونقلوها الى حلب .

ولمّا كان المصريون في قلعة الروم ارسل ابن قرمان التركماني من بلد الروم الى صاحب مصر ليوجّه اليه العساكر كي يمهّدوا له السبل للدخول الى سورية اذ كان متخوّفًا من جنود التتر ومن ملك الارمن . فارسل صاحب مصر الى الملك لاون كي يفتح الطريق للامير بيساري فيذهب ويحضر ابن قرمان. فوافق الملك بشرط ان لا يمرّوا الا في الاطراف من بلده فانجزوا طلبه ومرّوا بالجبال واخذوا ابن قرمان من قيسارية وانقلبوا راجعين . وعند عودتهم انتوى الامير بيساري ان ينتقض على مولاه فاستحلف العساكر (٥٤٢) ودخل بلد قيليقية واقام خمسة عشر يوماً يسبي وينهب . وقضى عشرة ايام في عين زربة وألحق اضرارًا جسيمة بالاهالي المنهزمين . ولو أطال الاقامة هناك لاحتلّ المدينة . غير ان الله تعالى كفّه عن ذلك . فتوجّه الى دير الباقساط واحرقه بأجمعه واحرق كذلك دير الرّبان قوما ولم يصل الى دير كريخان . وما ان وصل الى سورية حتى انجلت الدسيسة لصاحب مصر ابن البندقدار فبرز جيشًا من دمشق وانطلق الى مصر وجعل يحشد الجنود . فتخوّف بيساري ومن معه وتفرّقوا شذر مذر

وانهزم وحده الى اورشليم ولاذ وراق سليمان وحلق شعر راسه واذى لتوبة على ذنبه .

اما ابن البندقدار فلما رأى ما وقع من الخلاف بين عساكره توجه الى قلعة الكرك واستقال من المملكة . فاجتمع الاقطاب وحالفوا اخاه الصغير وبايعوه بعرش مصر ولكنه لم يفلح . لان الامير ألفي انتقض عليه وعزله وملك مكانه .

وفي هذا الصيف انهزم ابن السلطان عزّ الدين صاحب بلد الروم من برقة وتوجه نحو اباقا فرحب به ترحيباً حبياً واراد ان يملكه نصف بلد الروم لكن الاقطاب لم يوافقوه محتجين بانه ان تمّ ذلك يزداد الخصام بينه وبين ابن عمه . فقرروا ان يؤدّوا له نصف دخل البلاد دون ان يكون له امرٌ ما . فارتضى بذلك على كره منه .

وفي السنة ١٥٩١ لليونان(١٢٨٠م) توجه اشخوط الامير الايغوري ومسعود بن قوطي يريدان اباقا ملك الملوك وعرضا عليه ان القضاة المرسلين مع فافا الفارسي قد ارتشوا (٥٥٣) . فامر ابن اخيه وصهره ان يتولّيا القضيّة ويطّلعا على الحقيقة . وظلّا شهرًا كاملًا حتى حكما على الفافا وعلى القضاة الاولين الذين اقرّوا بما اخذوه منه رشوةً . فصدر الامر وفلق رأس الفافا يوم الخميس ٨ آب من السنة المذكورة ونُقل الى الموصل . وتولى مدينتي الموصل واربيل حكام مسيحيون كالسابق واشتهروا شهرة واسعة .

وصدر الامر كذلك بقتل جلال الدين توران الفارسي الذي من بلد كوتن لانه دافع عن فافا ولم يردعه عن وقاحته .

وانهزم يومئذٍ الى سورية الامير بدرو الكردي في اهله . وتتبّعه التتر حرّاس الطرق ولم يدركوه . امّا سنقور اشقر وكان في دمشق فلم يرَ ان يتولى ألفي على مصر فحشد الجنود ونازله فانكسر سنقور وانهزم الى رجوت يريد الامير عيسى البدويّ واتفقا معاً فوجّها سفيرًا الى اباقا ملك الملوك ليرسل الجيوش لمحاربة ألفي . فزحفوا الى سورية وخافهم مسعود ولم يطمئنّ اليهم وانهزم الى قلعة صهيون ولاذ بها ..ووصل التتر الى حلب واجهزوا على كلّ من صادفوه واحرقوا الابنية وانقلبوا . واختفى الكثيرون في المغاور فنجوا من

القتل . وكان قدوم التتر هذا الى سورية في شتاء السنة ١٥٩٢ لليونان (١٢٨١ م) بقودهم قونغرتي اخو اباقا الاصغر .

وعلى اثر عودة التتر من حلب احتشد سبعة الاف فارس من المصريين وتوجهوا الى قلعة مرقب (٥٤٤) بساحل البحر . وما ان شعر الاخوة الدواوية اصحاب القلعة بقدومهم حتى برز مائتا فارس وخمسمائة راجل ليلاً وكمنوا في الخاصة القريبة وانحدروا من خيامهم وجعلوا ينصبون خيامهم فوثب اليهم المصريون وفتكوا باغلبهم ولم يفلت الا القليلون منهم .

وفي صيف هذه السنة ثار العجم اصحاب جلال الدين تودان وفاقا على مسعود بن قوطي مدعين انه انتهب من خزانة جلال الدين ذهباً وافراً وجوهرة كريمة . فقبضوا عليه ونكلوا به تنكيلاً شديداً حتى كتب لهم بخمسين دينة من الدنانير . اما سُعيدات ابن عمه فقد حكموا عليه بالقتل : ومات تحت الضرب ابن حمية العربي الموصلي المساعد لمسعود . وقُتل كذلك ابو بكر الامير الكرديّ الذي ظلّ اعواماً في جبال آثور يقاوم الحكومة . وكان قد ذهب به مسعود وصالحه مع الاردو . وقُتل معه ثمانية من اصحابه . وقس عليهم ابن الشيخ عدي الكبير الذي انهزم الى سورية فلما رجع وذهب الى الاردو ودافع عن سبب هزيمته قُضي عليه بالقتل كذلك . ثم سار الجنود المغول بمسعود الى الموصل ليؤدّي الذهب فمكث معهم اياماً ثم فرّ ليلاً واختفى .

وفي خريف السنة ١٥٩٣ لليونان (١٢٨٢ م) زحف التتر كذلك الى سورية وعددهم خمس ميات وعلى رأسهم مونكاتيمور شقيق ملك الملوك المحبوب . وحشد كذلك لاون ملك قيليقية جيوشه وسار الى نجدته . واحتشد جنود مصر وسورية وعلى رأسهم ألفي سنقور اشقر وقد اتفقا واصطلحا . واصطدم التتر والمصريون ما بين حماة وحمص يوم الخميس ٣١ تشرين الاول من السنة المذكورة وتقوّى جانب (٥٤٥) التتر على جانب المصريين . ولما كادوا ينتصرون نصرة تامة خرج عليهم كمين العرب التغلبيين من ميسرتهم . فتوهّم التتر ان عساكر الاعداء قد احاطت بهم من قدّامهم ومن خلفهم فانقلب اصحاب القلب مع اهل الميسرة لينهزموا . اما اصحاب الميمنة وهم من التتر الاوراتيين ومعهم خمسة آلاف من الكرج وملك الارمن وجنوده . ولم يشعروا بالكمين وانما

كسروا المصريين الذين في مقدمتهم وساقوا خلفهم حتى بلغ حمص وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وما عتم ان وصل اليهم الخبر بهزيمة اصحابهم فرجعوا هم كذلك وفي رجعتهم صادفوا جماعة من عسكر المصريين الذين عدوا بعد هزيمة التتر. وتخوّف الجانبان احدهما من صاحبه والتحم القتال ما بينهما حتى اقصى كل منهما الى ناحيته . وهكذا اقبل جانب التتر في غنيمة كثيرة من النقود المصرية والبغال والآنية. اما جانب الميسرة والقلب فقد القوا عنهم ادواتهم وسار اعلبهم راجلين وقد نهكهم الجوع والعطش . ورجع جانب الميمنة والقلب من المصريين الى دمشق في غنيمة وافرة اختلسوها من التتر . ولم ينجُ من ميسرتهم الا القليل في حالة يُرثى لها . ولولا قدوم اباقا الى سواحل الفرات وعودته الى بغداد لقضى التتر على المصريين القضاء المبرم .

وفي شتاء تلك السنة حدث غلاء شديد ازعج اهالي اثور وبغداد وكان سببه عودة الجنود التتر من سورية . وحدث كذلك برد قارس والجدر في الموصل ثلج كثير خارق العادة .

وبعد ما حصل ما حصل بين المغول والمصريين احتشد لصوص المدنيين والتركمان والاكراد وزحفوا الى قيليقية ووصلوا الى (٥٤٦) اياس واحرقوها وغزوها . ولم يشاهدوا فيها احداً من اهاليها اذ كانوا قد انهزموا جميعاً الى البحر ولاذوا بالقلعة الجديدة التي ابنوها هناك . وبعد ما انتهب اللصوص ما انتهبوا عادوا ثانيةً وثالثةً ورابعةً ودخلوا البلد في اسبوع نيروز من السنة ١٥٩٣ لليونان (١٢٨٢م) ووصلوا الى تلّ حمدون واحتووا على غنيمة وافرة . ولما رجعوا أغلق الارمن دونهم الثغور واجهزوا عليهم قاطبة ونهبوا أسلحتهم وسلخوا جلود رؤوسهم وحملوا مخبآت وافرة من السيوف والحراب والسلاح وجلود الرؤوس في شعرها وبعثوا بها جميعاً الى ملك الملوك .

وبعد ايام قليلة حشد حيدر حاكم قلعة البيرة الفي فارس واحتل حصن زياد . وانهزم جمهور من النصارى واحتموا بمسجد العرب الكبير فنجوا من الغائلة . واعتصم بعضهم في مكان يقال له العمود فتعذّر على اللصوص مناوشتهم لان ذلك المكان يشبه مخاضةً لا سبيل الى العبور فيها . غير ان اولئك الملاعين سرقوا زهاء اربعة آلاف من النساء والفتيان ومرّوا بالفرات تجاه ملطية وغزوا

ضواحيها . وشاهدوا في عرقة جماهير من المسيحيين فاستاقوهم اسرى وانطلقوا الى سورية .

اما مونكاقور فبعد عودته من سورية توجه الى بغداد وزاد اباقا مبدياً اسفه الشديد على انكساره وعوّل على العودة الى سورية تكراراً . ولما وصل الى جزيرة قردو زاره الصفيّ قرقوبي واشتكى على حاكم المدينة مما افضى بمونكاقور ان يعامل الاهالي معاملة فظّة . فحقدوا عليه واتفقوا سراً مع احد سُقاة الحمّام فسقاه سمّاً هناك أثّر في جسمه فانتقل من الجزيرة الى نصيبين . ولما استيقن ولاة (٥٤٧) الجزيرة بان خيط حياته قد قطع قبضوا على الصفيّ قرقوبي وعلى ابنه وحاجبه وطافوا بهم عراةً في اسواق المدينة وقتلوهم شرّ قتلة .

اما اباقا ملك الملوك فارتحل من بغداد الى همذان وذهب يوم احد القيامة ١٥٩٣ لليونان (١٢٨٢ م) الى الكنيسة وابتهج في العيد مع المسيحيين . وفي الغد أولم له شخص فارسي اسمه بهنام وليمة عظيمة في داره . وليلة الثلاثاء تغيّر مزاجه وصار يرى خيالات في الهواء . وصباح الاربعاء اول نيسان و٢٠ في ذي القعدة انتقل من هذا العالم . ويوم الاحد ٢٦ نيسان و ١٦ محرّم انتقل كذلك أخوه مونكاقور الى بلد الجزيرة . على ان الاقطاب بعد وفاة آباقا ارسلوا اليه سفيراً يخبره بوفاة اخيه ويقول له ان يعدل عن الذهاب الى سورية . فكان ما كان من امر وفاته ووفاة لخيه ملك الملوك دون ان يشعر الواحد بوفاة الآخر .

وبعد ايام وجيزة زحف ستة آلاف فارس من سورية وعبروا الفرات ووصلوا الى جزيرة قردو . وخرج هرمين صاحبها ليناوشهم فقبضوا عليه وذهبوا به الى مصر معتقلاً . وهلع اهالي بلد الموصل وانهزموا جميعاً الى دير مار متى وتتابعوا في ضيق شديد وانتابهم الوباء فمات ثلاثون راهباً من الجملة .

وفي تلك الفضون نهض مجد الملك الكاتب الفارسي الجسور ورافع علاء الدين صاحب ديوان بغداد مدّعياً بانه سرق من مال الدولة كميّة وافرة فالقي القبض عليه وخسر كلّ امواله حتى اضطر ان يبيع اولاده الصغار من التجار . ولما كان في تلك الحال الضيقة توفي اباقا وخلفه احمد فاصدر الامر بقتل مجد الملك الجسور . وبعد قليل مات علاء الدين كذلك .

بعد اباقا تكودار اخوه الذي سُمّي احمد

لما انتقل اباقا ملك الملوك من هذا العالم اجتمع ابناء الملوك قاطبةً والامراء واتفقوا على ان احمد بن هولاكو الذي ولدته فوتني خاتون الملكة الكبيرة يتولى مملكة المغول في المغرب لانه جدير بها وهو اكبر اخوته . ولما جلس على عرش المملكة يوم الاحد ٢١ حزيران ١٥٩٣ لليونان (١٢٨٢ م) أبدى عطفاً جزيلاً وكرماً وافراً . وفتح خزائن أبيه وأخيه ووزّع من الذهب والفضة مبالغ طائلة على الاخوة والامراء والعساكر . واظهر الاحسان والشفقة لجميع الاهالي ولا سيما لرؤساء الاديان المسيحية . وكتب الفرامين باعفاء الكنائس والاديار والقسوس والرهبان من الضرائب والخراج في كلّ قطر وناحية . ووجه الشيخ اتابك صاحب بلد الروم وقطب الدين شيرازجي حاكم سبسطية وشمس الدين بن تيتي وزير صاحب ماردين الى صاحب مصر يقول : طبقاً لامره تعالى ووفقاً لشريعة ابينا جنكزخان قد توليت مملكة المغول . وقد دعاني الله جلّ وعزّ الى الصلح والسلام فاروم ان يعيش كلٌ في بلده عيشةً هادئة هنيئة وان تُلغى الحروب والمعارك في كل الارض . فاذا وافقتم على ذلك وجب ان تخلصوا الامان والخضوع واذا تماديتم في العدوان فالله تعالى يطالبكم بدمائ المظاومين .

وقد وافق صاحب مصر على الموادعة وابطال الحروب بشرط ان تكون الموصل لابن بدر الدين وان يؤدي للمغول مثلما يؤدي غيرهم وقس على ذلك بغداد وسنجار .

ولما عاد اولئك السفراء واخبروا بما قيل لهم وجّه ملك الملوك الشيخ عبد الرحمان الى المصريين ليؤيد (٥٤٩) الصلح وما برح مقيماً هناك . وقد فتحت الطرق واخذ التجار يسافرون من بغداد والموصل والعجم الى سورية ومن سورية ومصر الى بلاد التتر دون ادنى اذىً .

على ان عبد الرحمان لمّا تهيأ للسفر الى سورية اخذ معه كمية وافرة من خزائن الدولة المغولية كالحجار الكريمة والدرر العجيبة والذهب والفضة والاوانية والاقمشة المنسوجة بالذهب . وغادر الطاق الى تبريز واقام بها نحو شهر وجمع اليه الصناع والصيّاغ والخيّاطين وغيرهم واعدّ كلّ ما يجدر بالملوك ومن هناك

سافر الى الموصل وارسل فاستحضر من بغداد كذلك ربوة من الذهب وتوجه الى ماردين وهناك لقيه سفير السلطان الفي صاحب مصر وقال له : ان السلطان يقرئك السلام ويقول : قد مضى عليّ زمن مديد وانا مقيم في دمشق انتظر قدومك لاشاهدك واتمم رغبتك واعود الى مصر لان هذه الارض لا تتحمل الجيوش الوافرة التي معي . فارجو ان لا تتأخر .

فارسل اليه عبد الرحمن يقول : اني مستعد للقدوم فارغب ان توصي عبيدك كي يوصلوني الى بلدك مكرّماً وان لا يسافروا ليلاً كما جرى للسفراء الذين اقبلوا اليك قبلي . فارسل اليه السلطان يقول : انك كبير لدينا ومقامك عندنا غير مقام اولئك . فطب نفساً وهلمّ الينا مطمئناً كما تشاء . فوثق الشيخ عبد الرحمان بكلام السلطان وبعث في طلب الجيش التتري الذي يحرس طرق آمد فركبوا معه ثم ان الملك المظفر صاحب ماردين وجه معه كذلك شمس الدين ابن تيتي بثابة سفير وكان هذا رجلاً عظيماً مشهوراً وسير معه كذلك العساكر لينهضوا بخدمة الشيخ حتى الفرات ويعودوا . فارتحل الشيخ من ماردين في شوال ٦٨٢ للهجرة (١٢٨٣ م) ووصوله الى حرّان لاقاه امير من قبل صاحب مصر وتوقف (٥٥٠) الشيخ ينتظر الامير لينزل عن حصانه ويأتي راجلاً ليسلم عليه ويقبّل يده كالعادة لكن الامير ظلّ راكباً وحيّاه بالسلام ثم قال للشيخ : لا حاجة ان يأتي معك هؤلاء التتر فمُرهم ان يعودوا . فأذن لهم الشيخ في ذلك . وبعد هذا مضى امير بالشيخ ومن معه وسار في طريق البيرة وهو يقول : اننا قد اعددنا لك مكاناً للنزول في موضع آخر . ولمّا وصلوا الى ساحل الفرات قال له الامير : اننا قد مددنا الخيام في الناحية المقابلة . فقال له الشيخ : اننا نازلون حيثما تنزلون .

اما الماردينيون الذين قدموا في خدمة الشيخ فعوّلوا على الرجوع طبقاً لامر مولاهم . لكنّ الامير أبى ذلك وقال لهم : ان سلطاننا أمر ان تصلوا الى حلب . فعبروا الفرات على كره منهم وحلّوا هناك جميعاً وأعدّ الامير أطعمة وافرة للشيخ وحاشيته جميعاً . وبعد ما تعشوا واستراحوا وناموا نحو ساعة او اكثر ركب الامير ومن معه وارسل يقول للشيخ ان يركب كذلك فأبى وقال : لستُ اركب الا بعد بزوغ الشمس . فقال له الامير : ان السلطان

أمرني ان اسفرك ليلًا شئت ام أبيت . فسخط الشيخ وقال له : لستُ اسافر في الليل ولو قتلتني . فقال الامير : ان اقتلك لكني اعتقلك واسفّرك . عرف الشيخ انهم يحاولون النيل من كرامته فنهض وركب وساروا الليل كله ونزلوا وقت الفجر للمبيت خارجاً عن الطريق بعيدًا عن السكن . ولمّا وصلوا ليلًا الى حلب انزلوا الشيخ في احدى المدارس ووردهم الامر من ألفي ان يدفعوا لكل من الماردينيين الذين قدموا في خدمة الشيخ مائتي درهم ويعيدوهم الى بلدهم . وان يحتفظوا بالشيخ واصحابه وبالامير المغولي الذي معه وبشمس الدين سفير صاحب ماردين ويأتوا بهم (٥٥١) الى دمشق ليلًا وبعد ما امرهم بذلك غادر دمشق الى مصر ولم ينتظر الشيخ .

ولما وصل الشيخ الى دمشق مضوا به الى القلعة وسجنوه في غرفة واحدة وسجنوا سفير ماردين في غرفة ثانية . وجعلوا لكل اثنين من حشمه غرفة واحدة . امّا الفتى ابن الامير المغولي وابن مجد المُلك فجعلوهما في خدمة كبير الامراء واخذوا يركبون مع الامير ويحملون سلاحه .. ونهوا على الاطلاق السؤال عن الشيخ عبد الرحمان وقد انطوى خبره حتى يومنا هذا اذ مرّ على ذلك سنة كاملة .

وبعد سفر الشيخ عبد الرحمان الى سورية قبل للملك احمد ان لاخيه قونغراتي صلةً مع ارغون بن اباقا وانه مستعد ان يهجم ليلًا وانت راقد في خيمتك ويفتك بك . فخاف احمد وسارع فاوثق قونغراتي وقتله . ولما بلغ الخبر ارغون بقتل عمه حزن جدًا وتغيّر قلبه على احمد . فشعر احمد بتغيير قلب ارغون عليه وسيّر الناخ القائد في جيش كثيف للقبض عليه . فسار الى خراسان وانهزم ارغون من قدامه . فأهمل الناخ أمره واغمض عن القتال واشتغل بالاكل والشرب والسكر . وفي بعض الليالي هجم ارغون على عسكر الناخ وقتل منهم خلقًا كثيرًا وانهزم الناخ مع نفر قليل .

ولما أخبر احمد بذلك الحادث المشؤم سيّر الى جميع البلاد وحشد عساكر المغول والاكراد والعجم والكرج وسار الى خراسان يريد ارغون . فلما رأى ارغون انه عاجز عن المقاومة قصد احد الحصون ومعه ثلاثمائة من خيار الفرسان وجعل ينتقل من مكان الى مكان اذ لم يرَ ان يقيم (٥٥٢) في مكان واحد

وهو يعرف انه لا يقدر على محاربة احمد وخاف ان يذهب الى طاعة احمد . فبينما هو كذلك اذا بالامير بوغا الذي كان محبوباً عند والده اباقا تقدم الى احمد وقال له : ان وعدتني بان لا تؤذي ارغون فانا امضي اليه واحضره اليك . فعاهده احمد كعادة المغول وقال : ان جاء الي ارغون فلن اوذيه اصلاً . فسار بوغا الى الحصن وخاطب ارغون وجاء به الى احمد ففرح به جداً وعمل له المآدب والافراح ثلاثة ايام . وفي اليوم الثالث تغيّر قلبه عليه واقام الباخ وجماعته ليعرسوه وقال لهم : اني متوجه الى زيارة امي قوتي خاتون في اذربيجان فاحتاطوا ارغون لئلا يهرب وهلموا به الي حيث اكون . وفي تلك الليلة كشف سرّه لبعض الاكابر وقال لهم : ان لم اهلك ارغون وسائر اولاد الملوك فلن تنتظم لي السلطنة . وعند الصباح ارتحل واوصى ان يصحبوا اليه ارغون قليلاً قليلاً .

اما الامير بوغا فلما تحقق له الامر وعرف نية احمد وانه مزمع ان يهلك ابناء الملوك قاطبةً دفعته الحماسة فطاف عليهم واخبرهم بالامر فنهضوا ليلاً وقصدوا مكان ارغون واخرجوه وألبسوه الدرع ودفعوا له السلاح واركبوه حصاناً . وساروا جميعاً الى الموضع الذي كان فيه الباخ راقداً وقتلوه في خيمته وقتلوا معه جميع الاكابر اصحابه ونادى المنادون في معسكر المغول : ان ابناء الملوك قتلوا الباخ واصحابه فيجب ان يقيم كل واحد في مكانه ولا يتحرك ولا يخف . وعند الصباح ارسلوا فاستدعوا المغول القراوونس المخالفين (٥٥٣) لاحمد وتتبعوه جميعاً حتى ادركوه عند امه فقبضوا عليه واوثقوه واحتفظوا به وانهبوا اردو امه ونسائه . ولما وصل ارغون وسائر اولاد الملوك اتفقوا ان يملكوه عليهم خلفاً لابيه آباقا وقرروا ان يعزلوا احمد لانه لا يصلح للسياسة .

ولما كان المغول منهمكين في القتال مع بعضهم اغتنم الفي صاحب مصر تلك الفرصة فسيّر القائد حيدر في ثلاثة آلاف فارس الى بلد شيكتان ليقبضوا على ابن اشكتان القائد الارمني المشوار ويحملوه في قفص وينهبوا به اليه حياً ، ذلك لانه كان يؤذي عرب سورية . فعبروا الفرات وحلوا عند قلعة تينا وهي للارمن . وقد أصيب حيدر بسهم في المعركة الاولى فانزعج اصحابه وتركوا القلعة وفرّوا الى سورية . هكذا انتقم العدل الالهي من حيدر الذي بالغ في

نهب المسيحيين وأخرب ضواحي ملطية وحصن زياد . وتمّ ذلك في صيف السنة ١٥٩٥ لليونان (١٢٨٤ م) .

بعد تكودار الذي سُمّي احمد ارغون بن اباقا

تبوأ ارغون عرش مملكة التتر يوم الاربعاء غرة جمادى الاولى ٦٨٣ للهجرة اعني ٢٦ تموز ١٥٩٥ لليونان (١٢٨٤ م) وانتهت مملكة احمد واتفق اغلب امراء المغول على قتله . غير ان ارغون لم يرَ ان يشاركهم في ذلك وقال ان ام قونغراتي واولادها اعرف به فالذي يتوخون ان يفعلوه به فليفعلوه . وظل احمد اياماً مخفوراً حتى قتله اولاد قونغراتي وانتقموا منه . وتمّ ذلك يوم الاربعاء ثاني جمادى الآخرة و١٦ آب من هذه السنة . ولما استقام الأمر لارغون رتب لكلّ من اولاد الملوك بلداً من بلاده (٥٥٤) كبغداد ومازندران وآثور وخراسان وبلد الروم . وخافه الناس جميعاً ولا سيما اهالي سورية . قيل انه لمّا بلغ سورية الخبر ارتفعت اجرة الجمل من حلب الى حماة الى اربعمائة درهم اذ كانوا باجمعهم ينهزمون الى مصر . ثم ان الملك ارغون اقام مسعود بن قوطي ملكاً على الموصل ونواحيها فابتهج النصارى قاطبةً . غير انهم تأسفوا على الامير اشموط الراهب الايغوريّ . ذلك لانّ اولاد جلال الدين توران فتكوا به يوم قدوم ارغون الى زيارة احمد كأنهم يريدون ان يأخذوا بثار ابيهم .

مقتل شمس الدين صاحب الديوان

كان شمس الدين صاحب الديوان سبباً لحدوث النزاع بين ارغون واحمد . اذ قيل لارغون انه هو الذي سقى اباك السمّ وقتله . بناء عليه جعل يرسل الوفود الى احمد ويطالبه به فلم يسلمه اليه . فتغلب في ظن ارغون ان احمد اختار موت والده اباقا ليخلفه في مكانه . فلما فشل احمد وتعزز ارغون انهزم شمس الدين الى جبال ماري واحتمى بالأكراد اللوريين وكان كبيرهم يوسف شاه وهذا لمّا عرف ان ارغون توطد في عرش المملكة وافى الى خدمته واحتظى لديه ولا سيما لانه وعده باحضار صاحب الديوان الى عبوديته . وبعد هذا انطلق وأتى به الى ارغون وقدّم له هدايا وافرة بلغت نحو مائة ربوة من الدنانير ذهباً ثم عرضوا

عليه ان لا يهرق دمه . فطلب مهلةً ليبيع املاكه ويؤدي مبلغاً اوفر . واشار عليه الزعما. ان يستقرض تلك الكمية ويقدمها ويعود فيتولى املاكه . حينئذٍ جعل يستقرض من أنسبائه واهله وعبيده وأصدقائه حتى جمع اربعين ربوة وقال : لست اقدر ان احصل على اكثر من هذا (٥٥٥) وما ترون ان تفعلوه فافعلوه . فبرز الامر من ارغون بقتله وعلقوه بيديه ورجليه وألقوه ثلاث مرّات على الحضيض ورفسوه باحذيتهم حتى كلّوا . ثم فلقوا هامته يوم الثلاثا. خامس شعبان ٦٨٣ للهجرة اعني ١٧ تشرين الاوّل ١٥٩٦ لليونان (١٢٨٥ م) . تلك كانت عاقبة ذلك الرجل المهيب الداهية الذي كانت دولة المغول معلّقةً بمختصره . وكان ذا عقل وخبرةٍ كاملًا متقناً لكثير من الحِكَم والعلوم .

اما اخوه علاء الدين الذي تولى بغداد وتوفي قبل سنتين تقريباً في موجان ونقل الى تبريز ودُفن فيها فقد كان كذلك متضلعاً من العلوم خبيرًا بالشعر وصنّف تاريخًا عجيباً في الفارسية ذكر فيه اخبار الدول السلجوقية . والخوارزمية والاسمعيلية والمغولية . وقد نقلنا عنه ما اثبتناه عنها في كتابنا هذا .

وفي السنة المذكورة مات كذلك السلطان غياث الدين بن ركن الدين صاحب بلد الروم . وكان قد قصد القدوم الى الاردو ليشكو اليه السلطان مسعود ابن عمه . وبلوغه الى ارزنجان سقاه الزعما. سمًّا وقضوا عليه لانه كان مشوّش العقل ومتقلّباً في عيش بذخ .

(يتبع)